الفصل الأول

الأمير يوسف كمال راعى الفنون الجميلة

فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر شخصيات مغمورة لم تسترع أنظار الباحثين، ولم تجذب إنتباههم رغم أهمية ما لعبته هذه الشخصيات من أدوار، وما خلفته من آثار، فكانوا كالمعالم المضيئة التى عبرت عن وجدان وطنهم ، وتركوا أعمالا جليلة تشهد على قدرتهم فى إزدهار الحركة الفكرية والفنية فى مصر، وكان من هؤلاء الأمير يوسف كمال مؤسس أول مدرسة الفنون الجميلة فى مصر والعالم العربى. تلك الشخصية الفنية الموهوبة والفريدة فى رحابة فكرها وسعة صدرها ، فكان فنانا بطبعه وروحه، وكان ميله كله منصبا على التعبير عن المثل الأعلى فى الفن ، كما كان رجل ذو فكر وبراعة محبا للفنون الرفيعة وعاشقا لها ، يتحدث الإنجليزية بطلاقة ، وله مظهر متميز يتسم بالحياء.

ولد الأمير يوسف كمال فى عام ١٨٨٢، وهو ابن الأمير أحمد كمال حفيد ابراهيم باشا الكبير الابن الأكبر لمحمد على باشا مؤسس مصر الحديثة.[1] كان ضمن أعضاء الأسرة المالكة الذين اهتموا بالشئون العامة فى مصر، وقد إتخذ من ثرائه ومن أملاكه الطائلة من الأراضى الزراعية التى تركها له والده مجالا واسعا للنهوض ببعض القرى المصرية خاصة فى الصعيد والعديد من المرافق العامة[2]، فقد حددت ثروته فى عام ١٩٣٤ بعشرة ملايين من الجنيهات وبلغ ما امتلكه فى عام ١٩٣٧ (١٧) ألف فدان تدر ريعا سنويا قدره ٣٤٠ ألف جنيه وهو مبلغ كبير إذا قيس بقيمة العملة فى ذلك الوقت.

لقد عاش الأمير يوسف كمال حياة نشطة حافلة بالاهتمامات الثقافية والفنون الرفيعة والنشاط الاجتماعى كما كان مولعا بصيد الحيوانات المفترسة وغامر بذلك خلال أسفاره فى أركان المعمورة خاصة خلال زياراته للهند وجنوب أفريقيا وخلال تنقلاته فى صحارى مصر، وقد احتفظ بالكثير من جلود فرائسه وبعض رؤوسها محنطة فى قصره بالمطرية التى تحول إلى متحف بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

---

(1) وردت ترجمته فى كتابى " صفوة العصر" و "دليل الطبقة الراقية".

(2) مذكرات الخديوى عباس الثانى : عهدى ١٨٩٢- ١٩١٤، القاهرة، دار الشروق، ص ١٦٢.

وخلال رحلاته إلى أوربا ركز اهتمامه على جمع القطع النادرة من اللوحات الفنية لمشاهير المصورين فى أوربا خاصة فرنسا هذا بالإضافة إلى جمعه لمجموعة من القطع النادرة من الفن الأسيوى والفن الاسلامى وكان مولعا بالتاريخ ، ونتيجة لاهتمامه به أمر بطبع كتاب "وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية من أفريقيا الشمالية" للمسيوجيان[1]، و"المجموعة الكمالية فى جغرافية مصر والقارة" وكتاب " رحلات سياحية إلى بلاد الهند والتبت الغربية عام ١٩١٥ " وكتاب عن رحلة فى أدغال أفريقية.[2]

وقد اشتهر الأمير يوسف كمال بحبه للفنون، وعندما طرح عليه عددا من الفنانين الأجانب فى مصر وعلى رأسهم المثال الفرنسى " غاليوم لابلان" فكرة إنشاء مدرسة لتعليم الفنون الجميلة للمصريين على غرار الأكاديميات فى فرنسا وإيطاليا، وقد ظلت هذه الفكرة تراوده خاصة وأنها وجدت صدى فى نفسه، ولاقت هواه رغبته فى القيام بعمل خدمة عامة لوطنه تحفظ تاريخه وتراثه الفنى ، وتقدم له مجموعة من أبنائه الموهوبين فى الفن والإبداع، فأسس مدرسة الفنون الجميلة من ماله الخاص رغم العراقيل التى وضعها البعض لمنع افتتاح هذه المدرسة بحجة أن مصر لم تتهيأ لظهورها بعد، خاصة وأن مصر فى ذلك الوقت كانت تموج ببعض التيارات الدينية المعارضة للفنون حتى أن بعض الدعاة المتطرفين أجمعوا على تحريم ممارسة أعمال الفنون التى قالوا عنها أنها شرك بالله، ورجس من عمل الشيطان ودنس، ومشابهة للخالق عز وجل فى خلقه وردا على ذلك أدلى بعض المفكرين بآرائهم المناقضة لهذه الآراء التى أثارت الظنون والريب والتشكيك وجعلت فكرة إقامة المدرسة بعيدة التنفيذ، وكان فى مقدمة هؤلاء جرجى زيدان، واحمد لطفى السيد، وقاسم أمين، والشيخ محمد عبده.

فذكر جرجى زيدان أنه يجب النظر إلى الفن التشكيلى فى إطار ثقافة الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وطالب بوجود مدرسة فى مصر تعلم المصريين هذا الفن، ونشر

---

(1) طبع فى ١٣ مجلد باللغتين العربية والفرنسية.

(2) رابح لطفى جمعه : محمد لطفى جمعه وهؤلاء الإعلام، القاهرة، دار الوزان، ١٩٩٠.

لطفى السيد فى الجريدة مقالات عن الفنون الجميلة يوضح فيها أهميتها وضرورتها الحيوية، وأشار قاسم أمين فى كتاباته إلى أهمية الفن باعتباره قرينا للنهضة. [1]

أما الشيخ محمد عبده فكان من طليعة المدافعين عن الفن وأهله وبعد الدراسة والتشاور فى شأن إنشاء المدرسة لمدة ستة أشهر قرر الأمير يوسف كمال إخراجها إلى حيز الوجود، وانفق على العديد من طلابها ومنهم النحات المشهور "محمود مختار" حتى يستكملوا دراساتهم الفنية فى أوربا، واستحضر الأساتذة من المصورين الفرنسيين والإيطاليين للتدريس فيها إضافة إلى مساهماته فى الإنفاق على التعليم، ومؤسساته، ومن ذلك نذكر: تبرعه للجامعة المصرية الأهلية التى تأسست فى عام ١٩٠٨ بعدما تعرضت لأزمة مالية خلال الحرب العالمية الأولى جعلتها تتعثر فى أداء رسالتها وأدى إلى اضطراب موقفها المالى خاصة بعد أن قررت الحكومة إنقاص الاعانة التى تقدمها للجامعة من سبعة آلاف إلى ثلاثة آلاف جنيه[2]، فقدم الأمير للجامعة مبلغا من المال يقدر بألفين من الجنيهات، وتحمل المشاركة فى نفقات بعض بعثات الجامعة للخارج، كما أعطى لهذه الجامعة الوليدة ملكية مائة وخمسة وعشرين فدانا من أملاكه بالقليوبية للاستفادة من ريعها فى الإنفاق على متطلباتها. [3]

أما عن ولع الأمير يوسف كمال باقتناء التحف الفنية فكان شديد الولع بشراء اللوحات والقطع الفنية من الخارج والداخل وتقديم بعضها إلى المتحف الإسلامى كإهداء منه فأهدى هذا المتحف عددا لا يحصى من التحف الأثرية والمقتنيات الثمينة مثل آثار وقفية من الثريات ومنابر المساجد والسيوف والمشغولات الذهبية والمصاحف والدروع، وقد حرص على تسجيل كل قطعة من هذه الهدايا مع وصف تفصيلى لها وذكر تاريخ صنعها وبلد الإنشاء، كما قدم له مساعدات مالية حتى يستطيع القيام بتأدية دوره.

لقد كانت مشاعر الأمير يوسف كمال تجاه الفن واضحة لدرجة أنه جعل من قصره بالمطرية مكانا لتزاوج العمارة العربية الاسلامية مع العمارة الأوربية، حيث كلف المهندس

---

(1) محمود السبوى الشال: محمود مختار، رائد فن النحت المعاصر وتقويم أعماله الفنية، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٥، ص ١١- ١٢.

(2) للتفاصيل أنظر: الجامعة المصرية: تقرير مجلس الإدارة المقدمة للجمعية العمومية بجلستها فى ١٧ يونيو ١٩١٥، ص ٦.

(3) مذكرات الخديو عباس الثانى: عهدى، ص ١٦٢.

الفرنسى "انطونيو لاشياك" فى عام ١٩٠٨ بتأسيسه على هذا النمط، كما جعل من هذا القصر منتدى لرجال الفكر والفن حظى فيه الفنانون التشكيليون الأجانب برعاية خاصة، حيث كان يستشيرهم فى اقتناء وتكوين مجموعات من اللوحات الفنية لمشاهير المصورين فى أوربا وبالأخص فرنسا حيث كانت تنبثق فى باريس مدارس الفنون التشكيلية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وقد حرص على اقتناء لوحات رائعة من المدرسة الانطباعية انضمت فيما بعد إلى مجموعة محمد محمود خليل الذى يحويها متحفه بالقرب من شيراتون بالجيزة، كما انضم بعضها إلى متحف الأمير محمد على بالمنيل.

ومن خلال هذا الصالون توطدت صداقته بالنحات الفرنسى " غاليوم لابلان" المقيم فى مصر فى ذلك الوقت. [1]

وإلى جانب كل ذلك فقد كان الأمير يوسف كمال واحدا من ثلاثة مرشحين لتولى ملك مصر فقد رشحه السلطان حسين كامل الذى تولى حكم مصر أثناء الحرب العالمية الأولى بعد إقصاء الخديوى عباس الثانى كوريث له بجانب الأمير "كمال الدين حسين" والأمير " احمد فؤاد".

لقد عاش هذا الرجل فترة مديدة فى حياته مليئة بالنشاط حتى وافاه الأجل فتوفى فى عام ١٩٦٩ عن عمر يناهز السابعة والثمانين عاما فى مدينة " اشترويل" بالنمسا حيث كان يمتلك شاليها للصيد هناك.

وهكذا رحل راعى الفنون عن دنيا الأحياء، ولكن ذكراه ستظل باقيه نظير ما قدمه لوطنه من جلائل الأعمال. وما أحوج أبناء هذا الجيل إلى مثل هذه النماذج المضيئة التى تلهمه وتحمله على الاقتدار والاهتداء إذا غابت القدوة وغاب الكبرياء.

([1])كلية الفنون الجميلة: تعيد المنوى للكلية، مائة عام من الإبداع ، ١٩٠٨ - ٢٠٠٨.